﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النمل: 25]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

تعليلُ الضَّلالِ بانتفاءِ السُّجودِ للهِ

لمّا كانَ ضلالُ بِلْقيسَ وقومِها عجبًا في نفسِه، فضلًا عن أنْ يكونَ مِنْ قومٍ يجمعُهم جامعُ مُلْكٍ مبناهُ السّياسةُ الَّتي مَحَطُّها العقلُ، الَّذي هو نورُ الهدايةِ؛ علَّلَهُ بانتفاءِ أعظمِ مُقرِّبٍ إلى اللهِ تعالى، وهو السُّجودُ تعظيمًا لهُ، فقالَ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الآيةَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْخَبْءَ﴾: يدلُّ المعنى المحوريُّ لـ (خبأَ) على سَتْرِ الشَّيءِ[2]، والخَبْءُ: كُلُّ شَيْءٍ غائبٍ مَسْتورٍ، يُقالُ: خَبَأْتُ الشَّيءَ أَخْبَؤُهُ خَبْأً؛ إذا أَخْفَيْتَه، ويقالُ: جاريةٌ مُخبَّأةٌ، أي: مُخدَّرةٌ، وقيلَ في قولِه تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾: الخَبْءُ: كلُّ غائبٍ، وقيلَ: كلُّ مُدَّخَرٍ مستورٍ، وقيلَ: المرادُ السِّرُّ، وقيلَ: خَبْءُ السَّماءِ المطرُ، وخَبْءُ الأرضِ النَّباتُ[3]، وقيلَ: هو كلُّ ما احتوَتْهُ السَّماواتُ والأرضُ ممّا يُبرِزُهُ اللهُ للخلقِ لمنفعتِهم، فتشاهدُهُ العيونُ، كالمطرِ والنَّباتِ، أو تدركُهُ العقولُ، كبدائعِ الخَلْقِ، ودقائقِ الصُّنعِ[4].

2) ﴿تُخْفُونَ﴾: (خفي) أصلانِ متضادّانِ: أحدُهما: السَّتْرُ، والآخرُ: الإظهارُ؛ فمِنَ الأوَّلِ يقالُ: خَفيَ الشَّيءُ يَخْفَى، وأخفيتُهُ، وهو في خُفْيةٍ وخَفاءٍ؛ إذا سترتُهُ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 152.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبأ).
(3) السمين، عمدة الحفاظ: (خبأ).
(4) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.

ومِنَ الثّاني يقالُ: خَفا البَرْقُ خَفْوًا؛ إذا لمَعَ[1]، والخِفاءُ: ما يُستَرُ بهِ كالغِطاءِ[2]، وخَفَيْتُهُ: أظهرتُهُ، والاستخفاءُ: طلبُ الإخفاءِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 5][3]، ويُقابَلُ الإخفاءُ بالإبداءِ تارةً، كقولِهِ تعالى: ﴿إِن تُبْدُوا۟ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِىَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: 271]، وبالإعلانِ أخرى كقولِهِ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾[4]، ومعنى ﴿مَا تُخْفُونَ﴾ في الآيةِ: ما تكتمونَ في أنفسِكم أو عن غيرِكم[5].

3) ﴿تُعْلِنُونَ﴾: المعنى المحوريُّ لـ(علن): إظهارُ الشَّيءِ والإشارةُ إليهِ وظُهورُهُ[6]، والعلانيةُ: ضدُّ السِّرِّ، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيانِ، ويقالُ: أعلنتُ كذا، قالَ ﷺ: ﴿ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 9]، أي: سِرًّا وعلانيةً، وقالَ: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ۝٦٩﴾ [القصص: 69][7]، ومعنى ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ في الآيةِ: ما تُظهرونَ للنّاسِ[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُستحقُّ للعبادةِ هو عالِمُ السِّرِّ والعلانيةِ

زيَّنَ لهم الشَّيطانُ مِنْ أعمالِهم عدمَ سجودِهم للّهِ، الَّذي أقامَ عليهم الحُجَّةَ، بما يُخرِجُه لهُم مِنَ الخيراتِ المكنونةِ في السَّماواتِ والأرضِ، مِنْ أمطارِ السَّماءِ ونباتِ الأرضِ، ممّا يدلُّ على عظيمِ قدرتِهِ، ولُطْفِ علمِهِ الَّذي أحاطَ ببواطنِ الأشياءِ وظواهرِها، وبما تنطوي عليهِ السَّرائرُ، وبما هو ظاهرٌ للعمومِ[9].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (خفي).
(3) الراغب، المفردات: (خفي).
(4) السمين، عمدة الحفاظ: (خفي).
(5) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (علن).
(7) الراغب، المفردات: (علن).
(8) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 275.
(9) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 276.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

توجيهُ القراءاتِ في ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟﴾:

غايةُ الشَّيطانِ ألّا يهتدوا إلى السُّجودِ للهِ تعالى

قرأَ أبو جعفرٍ والكسائيُّ ورويْسٌ: ﴿أَلَا يَسْجُدُوا۟﴾ بتخفيفِ اللّام، ووقفوا في الابتداءِ (ألا يا)، وابتدؤوا (اُسْجُدوا) بهمزةٍ مضمومةٍ على الأمرِ، وقرأَ الباقونَ: ﴿أَلَّا﴾ بتشديدِ اللّامِ، و﴿يَسْجُدُوا۟﴾ عندَهم كلمةٌ واحدةٌ، فلا يجوزُ القطعُ على شيءٍ منهما[1].

أمّا مَنْ قرأَ بالتَّشديدِ، فأرادَ: فصدَّهم عنِ السَّبيلِ؛ لئلّا يَسْجُدوا، فحذفَ الجارَّ معَ (أنْ)، ويجوزُ أنْ تكونَ (لا) صلةً، ويكونَ المعنى: فهم لا يهتدونَ إلى أنْ يَسْجُدوا[2]، أو هو مفعولٌ لهُ للتَّزيينِ على حذفِ اللّامِ منهُ، أي: زيَّنَ لهُم أعمالَهم؛ لئلّا يَسْجُدوا[3]، أو (أنْ) مصدريَّةٌ في موضعِ نصبٍ على البدلِ مِنْ ﴿أَعْمَٰلَهُمْ﴾، أو في موضعِ خفضٍ على البدلِ مِنَ ﴿ٱلسَّبِيلِ﴾[4]، و(لا) نافيةٌ.

وأمّا مَنْ قرأَ بالتَّخفيفِ: فـ (ألا) للتَّنبيهِ، و(يا) حرفُ النِّداءِ، ومناداهُ محذوفٌ[5]، والمعنى: ألا يا هؤلاءِ، أو يا أيُّها النّاسُ اسجُدوا، فحُذِفَتْ همزةُ الوصلِ بعدَ (يا) وقبلَ السّينِ مِنَ الخطِّ على مرادِ الوصلِ دونَ الفصلِ[6].

تعيينُ المتُكلِّمِ في هذهِ الآيةِ والَّتي بعدَها:

المتُكلِّمُ عن حالِ بلقيسَ وقومِها هو الهُدْهُدُ

اختُلِفَ في تعيينِ المُتكلِّمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾﴾، فظاهرُهُ أنَّهُ مِنْ قولِ الهُدْهُدِ[7]،

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 361.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 281.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256.
(5) الزمخشري، الكشاف: 3/ 361.
(6) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.

ويحتملُ أنْ يكونَ مِنْ قولِ اللهِ تعالى لأمَّةِ رسولِ اللهِ ﷺ، جيءَ بهِ على سبيلِ الاعتراضِ بينَ الكلامين[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾:

سعيُ الشَّيطانِ إلى استمرارِ الصَّدِّ عن السُّجودِ للهِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾ على قراءةِ التَّشديدِ؛ للدَّلالةِ على التَّجدُّدِ والاستمرارِ، فإذا كانَ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ تعليلًا للصَّدِّ أو التَّزيينِ؛ فالمعنى: أنَّهُ صدَّهم، أو زيَّنَ لهُم أعمالَهم؛ ليستمرّوا على عدمِ السُّجودِ للهِ، وإذا كانَ بدلًا مِنْ ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ أو ﴿السَّبِيلِ﴾؛ فالمعنى: أنَّه زيَّنَ لهُم الاستمرارَ على عدمِ السُّجودِ للهِ، أو صدَّهم عنِ السُّجودِ للهِ، وإذا كانَتْ (لا) صلةً؛ فالمعنى: أنَّهم لا يهتدونَ إلى الاستمرارِ على السُّجودِ للهِ، وخُصِّصَ السُّجودُ بالذِّكرِ؛ لأنَّهُ أصلُ كفرِهم، ومَبْعَثُ فسادِ أعمالِهم[2].

معنى اللّامِ في ﴿لِلَّهِ﴾:

صدُّ الشَّيطانِ لهُم عن تخصيصِ السُّجودِ باللهِ

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، هي لامُ التَّعديةِ، وفيها معنى الاختصاصِ، أي: ألّا يجعلوا سجودَهم خاصًّا باللهِ تعالى ذكرُهُ.

فائدةُ ذكرِ لفظِ الجلالةِ:

ملاءمةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ التَّعجُّبِ والتَّوبيخِ

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ﴾؛ لأنَّ المقامَ للتَّعجُّبِ مِنْ تركِ بِلْقيسَ وقومِها السُّجودَ للهِ، وللإنكارِ عليهم، وإيرادُ لفظِ الجلالةِ مُناسِبٌ لهذا المقامِ، مِنْ حيثُ إنَّهم تركوا السُّجودَ للمُستحقِّ للأُلوهيَّةِ والإفرادِ بالعبادةِ، والمعنى: ألّا يَعْبُدوا الَّذي لهُ الكمالُ كلُّهُ بالسُّجودِ الَّذي هو مَحَلُّ الأُنْسِ، ومَحَطُّ القُرْبِ، فإنَّهم لو سَجَدوا لهُ سبحانَهُ؛ لاهتدَوا،

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 256، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 232.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 276.

فإنَّ الصَّلاةَ تنهَى عنِ الفحشاءِ والمُنكَرِ، ففاتَ الشَّيطانَ ما يقصدُهُ منهُم مِنَ الضَّلالِ[1].

فائدةُ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ بالذِّكرِ:

أرسخُ الحُجَجِ ما بانَتْ آثارُهُ في النَّفسِ

المرادُ بإخراجِ الخَبْءِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إبرازُهُ للنّاسِ، أي: إعطاءُ ما هو غيرُ معلومٍ لهُم مِنَ المطرِ، وإخراجِ النَّباتِ، وإعطاءِ الأرزاقِ، وهذا مُؤذِنٌ بصفةِ القُدرةِ[2].

وتخصيصُ هذا الوصفِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ سائرِ أوصافِهِ تعالى الموجبةِ للسُّجودِ لهُ؛ لأنَّ الهُدْهُدَ أرسخُ في معرفتِهِ والإحاطةِ بأحكامِهِ بمشاهدةِ آثارِهِ، الَّتي مِنْ جملتِها ما أودعَهُ اللّهُ تعالى في نفسِهِ مِنَ القُدرةِ على معرفةِ الماءِ تحتَ الأرضِ[3]، ولأنَّ طعامَهُ دائمًا مِنْ تحتِ الأرضِ، يَنْقُرُ، ويُخرِجُ رِزْقَهُ[4].

إظهارُ أمرِ بِلْقيسَ شبيهٌ بإخراجِ الخَبْءِ

واختيارُ هذا الوصفِ أيضًا؛ لأنَّهُ أوفقُ بالقصَّةِ؛ إذ تضمَّنَتْ ما هو أشبهُ شيءٍ بإخراجِ الخَبْءِ، وهو إظهارُ أمرِ بِلْقيسَ وما يتعلَّقُ بهِ، وعلى هذا القياسِ اختيارُ ما ذُكِرَ بعدُ مِنْ صفاتِهِ ﷻ[5]، ثمَّ إنَّ القصَّةَ كانَتْ في بيانِ علمِهِ سبحانَهُ السّابقِ لعلمِ الخلائقِ المُستلزِمِ للحكمةِ، ولذلكَ وصفَهُ بما يقتضي ذلكَ[6].

نكتةُ الوصفِ بالاسمِ الموصولِ:

مُخرِجُ الخَبْءِ هو المُستحِقُّ للسُّجودِ

جيءَ بالاسمِ الموصولِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ﴾؛ لأنَّ حقَّ ما في حيِّزِ الصِّلةِ أنْ يكونَ مِنْ مَبادي جَرَيانِ الحُكمِ على الموصولِ، ومدارًا للحُكمِ الواردِ عليهِ، فلا أقلَّ مِنْ أنْ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 4/ 2170.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.

يكونَ وصفًا ملائمًا لهُ، وهو هنا لبيانِ سببِ استحقاقِهِ تعالى للإفرادِ بالسُّجودِ والعبادةِ، وهو إخراجُهُ الخَبْءَ في السَّماواتِ والأرضِ، فذلكَ يُنبِئُ عن العلمِ الشّاملِ الَّذي لا يكونُ إلّا للإلهِ الواحدِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يُخْرِجُ﴾:

توبيخُ تاركِ عبادةِ الخالقِ القادرِ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الإخراجِ واستمرارِهِ، وذلكَ يلائمُ مقامَ الإنكارِ والتَّوبيخِ لمَنْ يتركُ عبادةَ الإلهِ القادرِ العليمِ الَّذي مِنْ شأنِهِ إخراجُ الخَبْءِ في السَّماواتِ والأرضِ، ويعبدُ الشَّمسَ الَّتي هي مخلوقٌ مِنْ مخلوقاتِهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿الْخَبْءَ﴾:

لا يَخفَى على اللهِ مخبوءٌ وإنْ دقَّ

الخَبْءُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ مصدرُ خبأَ الشَّيءَ؛ إذا أخفاهُ، وقد أُطلقَ هنا على المخبوءِ، وهو المطرُ والنَّباتُ وغيرُهما ممّا خبأَهُ تعالى مِنْ غُيوبِهِ[1]، ويدخلُ فيهِ المخبوءُ بالقوَّةِ، وهو ما لم يوجَدْ أصلًا[2]، والغرضُ مِنْ إطلاقِ المصدرِ على اسمِ المفعولِ هنا المبالغةُ في الخفاءِ، كما هو شأنُ الوصفِ بالمصدرِ[3].

إعرابُ قولِهِ ﷻ: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾:

قدرةُ اللهِ مُحيطةٌ بكلِّ مخبوءٍ

قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فيهِ وجهانِ: **أحدُهما:** أنَّهُ مُتعلِّقٌ بـ ﴿الْخَبْءَ﴾، أي: المخبوءَ في السَّماواتِ والأرضِ. **والثّاني:** أنَّهُ مُتعلِّقٌ بـ ﴿يُخْرِجُ﴾ على أنَّ معنى ﴿فِي﴾ معنى (مِنْ)، أي: يُخرِجُهُ مِنَ السَّماواتِ والأرضِ[4]، والتَّعبيرُ بـ﴿فِي﴾؛ للدَّلالةِ على معنى الشُّمولِ والإحاطةِ؛ ليشملَ كلَّ ما في السَّماواتِ والأرضِ مِنَ الخبْءِ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 362، وأبو حيان، البحر المحيط: 8/ 231.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 605.

وجهُ تعريفِ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

التعريفُ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿أَلَّا يَسۡجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِي يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للجنس، فالمراد جنسُ السَّماواتِ والأرضِ.

اللهُ يُخرِجُ مخبوءَ جنسِ السَّماواتِ والأرضِ

سرُّ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ بالسَّماواتِ والأرضِ:

خُصَّ إخراجُ الخَبْءِ بقولِهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لأنَّ ذلكَ مُنتهَى مشاهدتنا، فننظرُ ما يتكوَّنُ فيهما بعدَ أنْ لم يكنْ مِنْ سحابٍ ومطرٍ ونباتٍ ورعدٍ وبَرْقٍ ونحوِ ذلكَ، وما يُشرِقُ مِنَ الكواكبِ، ويَغْرُبُ، إلى غيرِ ذلكَ مِنَ الرّياحِ والبردِ والحرِّ، والحركةِ والسُّكونِ، والنُّطقِ والسُّكوتِ، وما لا يُحصيهِ إلّا اللهُ تعالى، والمرادُ: أنَّهُ يُخرِجُ ما هو في عالَمِ الغَيبِ، فيجعلُهُ في عالَمِ الشَّهادةِ[1].

السَّماواتُ والأرضُ مُنتهَى مشاهدتِنا

دلالةُ العطفِ بالواوِ في ﴿وَيَعۡلَمُ﴾:

أُشيرَ بعطفِ قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ على ﴿يُخۡرِجُ﴾ إلى أنَّهُ جلَّتْ قُدرتُهُ يُخرِجُ ما في العالَمِ الإنسانيِّ مِنَ الخَفايا، كما يُخرِجُ ما في العالَمِ الكبيرِ مِنَ الخَبايا؛ لأنَّ المرادَ: يُظهِرُ ما تُخفونَهُ مِنَ الأحوالِ، فيُجازيكُم بها[2].

المختصُّ بإخراجِ الخَبْءِ هو العالمُ بالظّاهرِ والباطنِ

وأُشيرَ أيضًا بقولِهِ تعالى: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡخَبۡءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ إلى كمالِ قُدرتِهِ تعالى، كما أُشيرَ بقولِهِ: ﴿وَيَعۡلَمُ مَا تُخۡفُونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ إلى كمالِ عِلمِهِ ﷻ[3]، فإخراجُ الخَبْءِ لا يكونُ إلّا مِنَ العالِمِ بذلكَ الخَبْءِ، الَّذي أحاطَ علمُهُ بهِ في حالِ سَتْرِهِ، وفي حالِ ظهورِهِ، فيدلُّ ذلكَ على شمولِ علمِهِ؛ لِما ظهرَ وما بطنَ، ومنهُ ما يُخفونَ وما يُعلنونَ، ولذلكَ عطفَهُ عليهِ؛ لترتُّبِهِ عليهِ ترتُّبَ المدلولِ على الدَّليلِ[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 153.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 187.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 10/ 187، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 19/ 255.
(4) ابن باديس، مجالس التّذكير، ص: 277.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في ﴿وَيَعْلَمُ﴾:

مُتعلّقاتُ علمِ اللهِ تعالى مُستمرَّةٌ

أوثرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ العلمِ وتجدُّدِهِ، ولا يخفى أنَّ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ باعتبارِ مُتعلَّقاتِ علمِ اللهِ تعالى، لا باعتبارِ ذاتِهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿مَا﴾:

لا يغادر علمُ اللهِ تعالى صغيرة ولا كبيرة

أتى النَّظم بالاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ لكون التَّعبير به أجمعَ وأخصر، فعُبِّرَ بـ ﴿مَا﴾ الدّالَّةِ على العموم؛ للدَّلالةِ على شُمولِ علمِ اللهِ تعالى لكلِّ ما يُخفيهِ المُخاطَبونَ وما يعلنونه.

نكتةُ تكرارِ (ما) الموصولة:

علمُ اللهِ تعالى شاملٌ كلَّ ما يَخفَى

كُرِّرَ الموصولُ (ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يقل: (ويعلمُ ما تُخْفونَ وتُعلِنونَ)؛ لِما يدلُّ عليهِ تكرارُ الاسمِ الموصولِ مِنَ المبالغةِ في شُمولِ علمِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ لكلِّ ما يُخفيهِ المُخاطَبونَ، ويُعلِنونَهُ، وأنَّهُ لا يغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً منهما إلّا علمَها، وفي ذلكَ إشارةٌ إلى دِقَّةِ العلمِ، وفي تكرارِهِ أيضًا إظهارُ الاعتناءِ بكلٍّ مِنَ المخفيِّ والمُعلَنِ، وأنَّهُ ليسَ أحدُهما تابعًا للآخرِ.

علَّةُ عدمِ الاقتصارِ على فعلِ الإخفاءِ:

علمُ اللهِ واسعٌ يتساوى فيهِ المُخفَى والمُعلَنُ

ذُكِرَ ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ في قولِ الحقِّ تقدَّسَ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، ولم يُقتصَرْ على ذكرِ ﴿مَا تُخْفُونَ﴾؛ لتوسيعِ دائرةِ العلمِ، أو للتَّنبيهِ على تساويهما بالنِّسبةِ إلى العلمِ الإلهيِّ[1]، ثمَّ إنَّ قولَهُ تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ﴾ لمّا كانَ مُستلزِمًا لعلمِ الجَهْرِ، وكانَ للتَّصريحِ ما ليسَ لغيرِهِ مِنَ المُكْنةِ والطُّمأنينةِ، معَ أنَّ الإعلانَ ربَّما كانَ فيهِ مِنَ اللَّغَطِ واختلاطِ الأصواتِ ما يمنعُ المُستمِعَ مِنَ العلمِ؛ قالَ: ﴿وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، أي: تُظهِرونَ[2].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 282.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 14/ 154.

بلاغةُ الطباقِ بينَ الإخفاءِ والإعلانِ:

جمعُ الإخفاءِ والإعلانِ تصويرٌ لسَعَةِ علمِ اللهِ

جُمِعَ بينَ الإخفاءِ والإعلانِ في قولِ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لِما في الجمعِ بينَهما مِنْ رِعايةِ الطِّباقِ بينَهما، بحيثُ يَرَى السّامعُ صورتينِ متقابلتينِ، كلٌّ منهما تحتَ علمِهِ الشّاملِ - تقدَّسَ ذكرُهُ - وذلكَ يُرسِّخُ في الأذهانِ صورةَ سَعَةِ العلمِ لا محدوديَّتِهِ.

غرضُ تقديمِ الإخفاءِ على الإعلانِ:

التقديمُ دليلُ الإحاطةِ وكمالِ القُدرةِ وتمامِ العِلمِ

قُدِّمَ الإخفاءُ على الإعلانِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾؛ لأنَّ المرادَ وصفُ علمِهِ تعالى بالإحاطةِ التّامَّةِ؛ إذ استوَى فيهِ الباطنُ والظّاهرُ، وتقديمُ ﴿مَا تُخْفُونَ﴾ أدلُّ على ذلكَ، معَ مناسبتِهِ لِما قبلَهُ مِنَ الخَبْءِ[1]، وفي تقديمِ الإخفاءِ أيضًا دليلٌ على كمالِ القُدرةِ والعِلمِ التّامِّ[2].

توجيهُ القراءاتِ في ﴿تُخْفُونَ﴾ و﴿تُعْلِنُونَ﴾:

تنوُّعُ الخطابِ سَعَةٌ في المعاني

قرأَ الكسائيُّ وحفصٌ: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ بالخِطابِ فيهما، وقرأَهما الباقونَ: ﴿مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بالغَيبةِ[3]، والظّاهرُ أنَّ الكلامَ على القراءتينِ للهُدْهُدِ، وقراءةُ الغَيبةِ ظاهرةٌ في ذلكَ، وأمّا قراءةُ الخِطابِ؛ فتأويلُها: أنَّهُ خرجَ إلى خطابِ الحاضرينَ بعدَ أنْ أتمَّ قضيَّةَ أهلِ سبأٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ التفاتًا على أنَّهُ نزَّلَ الغائبَ منزلةَ الحاضرِ، فخاطبَهُ مُلتفتًا إليهِ[4].

ويجوزُ في قراءةِ الغَيبةِ إفادةُ أنَّ الآيةَ مِنْ كلامِ الهُدْهُدِ، وفي قراءةِ الخِطابِ إفادةُ أنَّها مِنْ خطابِ اللّهِ ﷻ لأمَّةِ محمَّدٍ ﷺ[5].

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 7/ 42، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 187.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 378.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/ 337.
(4) السمين، الدر المصون: 8/ 605.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 257.

نكتةُ تخصيصِ إخراجِ الخَبْءِ والعِلمِ بالذِّكرِ:

تخصيصُ وصفَيْ إخراجِ الخَبْءِ والعِلمِ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ لأنَّهما أمسُّ بالمقامِ، حيثُ دلَّ كلٌّ منهما على اختصاصِ استحقاقِ العِبادةِ بِهِ تعالى[1].

دلالةُ كلٍّ مِنَ الوصفينِ على اختصاصِ استحقاقِ العِبادةِ بِهِ تعالى

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخَبْءُ، والمُخفَى، والمُضمَرُ:

الخَبْءُ: كلُّ غائبٍ، وقيلَ: كلُّ مُدَّخرٍ مستورٍ، ويقالُ: خَبْأَةٌ، أي: تُخبَّأُ مرَّةً، وتُظهَرُ أخرى[2]، ومعنى الادِّخارِ معَ سَتْرٍ وتناوبِ ظهورٍ يتناسبُ معَ سياقِ الآيةِ، الَّتي تتضمَّنُ الدَّلالةَ على الإنعامِ والرِّزقِ المُدَّخرِ، الَّذي يُظهِرُهُ اللهُ تعالى، ويُخفيهِ متى شاءَ وأينَ شاءَ، وهذا المعنى لا يُؤدّيهِ بهذا التَّفصيلِ كلٌّ مِنَ الإخفاءِ والإضمارِ، فالإخفاءُ: السَّترُ والتَّغطيةُ والكتمانُ، والخِفاءُ: ما يُستَرُ بِهِ، كالغِطاءِ، ومنهُ: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ [طه: 15]، أي: أستُرُها، فلا يطَّلعُ عليها أحدٌ، ويقابلُهُ الإبداءُ والإعلانُ[3]، والإضمارُ: يدلُّ على غَيبةٍ وتستُّرٍ، ومنهُ الضَّمارُ، وهو المالُ الغائبُ الَّذي لا يُرجَى، وكلُّ شيءٍ غابَ عنكَ، فلا تكونُ منهُ على ثقةٍ، فهو ضمارٌ[4].

بيدِ اللهِ تعالى إخراجُ ما خبَّأَهُ مِنَ النِّعَمِ والأرزاقِ

الإعلانُ والجهرُ والإذاعةُ والإظهارُ:

فُرِّقَ بينَ الإعلانِ والجَهْرِ: بأنَّ الإعلانَ خلافُ الكتمانِ، وهو إظهارُ المعنى للنَّفْسِ، ولا يقتضي رفعَ الصَّوتِ بِهِ، وأكثرُ ما يقالُ ذلكَ في المعاني دونَ الأعيانِ، ويُقالُ اعتبارًا بظهورِ المعنى الَّذي فيهِ، لا بظهورِ ذاتِهِ، وأمّا الجَهْرُ؛ فيقتضي رفْعَ الصَّوتِ بِهِ، ولذلكَ

الإعلانُ لا يقتضي رفعَ الصَّوتِ، والجَهْرُ يقتضي رفعَ الصَّوتِ

(1) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 14/ 378.
(2) الراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خبأ).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خفي).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضمر).

يقالُ: رجلٌ جَهيرٌ وجَهْوَريٌّ؛ إذا كانَ رفيعَ الصَّوتِ[1]، والذَّيْعُ: إشاعةُ الأمرِ ونَشْرُهُ، وإظهارُهُ والمناداةُ بِهِ في النّاسِ[2]، والإظهارُ يُستعمَلُ في كلِّ بارزٍ مُبْصَرٍ بالبصرِ والبصيرةِ[3].

ومِنْ هنا نجدُ أنَّ أنسبَ المعاني لسياقِ الآيةِ ما يتضمَّنُ اعتبارَ ظهورِ المعنى للنَّفسِ الَّذي يقتضي حتمًا عدمَ رفعِ الصَّوتِ؛ لأنَّ العلمَ بِهِ أدقُّ وأصعبُ، وليسَ مِنَ الصَّعبِ العلمُ بالأمرِ المُبصَرِ الَّذي شاعَ، وانتشرَ بينَ النّاسِ، رُفِعَ بِهِ الصَّوتُ أم لم يُرفَعْ.

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 60، والراغب، المفردات: (علن).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (ذيع).
(3) الراغب، المفردات: (ظهر).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والثلاثون،
سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 39 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-84-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 39 : المجلد التاسع والثلاثون، سورة الشُّعَراء من الآية 96 إلى سورة النَّمْلِ الآية 25.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-84-6
*
إذن طباعة رقم:MC-03-01-8468153 بتاريخ 2024/12/16م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»